أما « المطلق » فهو لا يعرف إلا عن طريق الانفعال النفسانى ، وإن كل محاولة لمعرفة هذا « المطلق » عن طريق التفكير المنطق آيلة ضرورة إلى الفشل المحقق بعد أن تقود صاحبها إلى صحراء قاحلة من السفسطة والضلال ، لأن المنطق لا يصل إلى نتائجه إلا بالتحليل ؛ ولو أصبح تحليل « المطلق » ممكناً ، لخرج عن كونه « مطلقا »

أما الناحية العلمية من مذهبه : فهى وإن كانت مؤسسة على الأصول الجوهرية من آراء « لاهو — تسيه » إلا أنها تطورت عن المذهب القديم كثيراً . ولإيضاح هذه الناحية العملية أجرى فيلسوفنا الشاعر محاورة بين روح السحاب وبين الضباب ، ثم بسط مذهبه على لسان الضباب فقال : « صير قلبك حازماً وتجنب كل تدخل فى أى شىء ؛ أى الزم اللا « وو — وى » أو « اللاعمل » ودع الأشياء تتطور حسب ناموسها الطبيعى ، ولا تأبه لجسمك وأغلق عينيك وأذنيك ، وانس كل ما يربطك بالعالم الخارجى ، وامتزج بالمبدأ الأول . فك وثاق قلبك ، ومد روحك ؛ وعد إلى عالم « اللاإدراك » فإذا تحقق ذلك رجع كل كائن إلى الصدر المبدئى العام ، وعاد كل شىء إلى منشئه دون علم منه بهذه العودة واجتمع كل موجود ، وتوحد الجميع كما كانت الحال فى البدء ، ولم يصبح كل كائن مريداً ولا قادراً عن البعد عن هذه الوحدة المطلقة الأبدية »

ويعلق أحد المستصينين على هذا بقوله : ينبغى ألا يتسرب إلى الأذهان أن تنسك « شوانج — تسيه » كان نوعاً من الحرمان والرهبنة على نحو ماهو موجود فى الديانات الهندية والمسيحية ، كلا ، فالحكيم فى رأيه لا يستحق هذا الاسم إلا إذا ترفع عن جميع الآلام وتخلص منها وأخضعها لإرادته . أما متنسكو تلك الديانات فهم تحت الآلام لا فوقها ، وهذا فرق عظيم يجب أن يعنى به الباحثون

بهذا الفيلسوف تنتهى أرقى الحركات العقلية حول « التاو إيسم » الفلسفى بعد أن أزهرت إبان القرنين : الخامس والرابع قبل المسيح إزهاراً ساعد عليه تعطش الشعب إلى السعادة والهدوء فى وسط معمعان هذا التدهور السياسى والعمرانى الذى أشرنا إليه آنفا

هذا ، وسندرس ما عرض له « التاو إيسم » من تطورات فى العصور التاريخية التى تلت هذا العصر ، ولكن بعد أن ننتهى من دراسة أعلام المذهب الآخر وهم : « كونفيشيوس » وأشياعه

(يتبع)

محمد غلاب

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٩ —

« قطعتنى زحمة العمل أسبوعين عن مواصلة الكتابة وقامت بينى وبين الواجب ؛ ثم ألح علىّ المرض أسبوعين يغدو ويروح بين الليل والنهار ، فلا أنا أم أن أشرع القلم لأستأنف حديثى حتى يقطعنى الاعياء ويقعد بى العجز . فما كان من صمتى فى الأسابيع الأربعة الماضية فهو من ذاك ، ولعله عذر يبلغ بى عند الأصدقاء الذين ظنوا بى ماظنوا لهذا الصمت الطويل فأوسعونى فى رسائلهم عتباً وملامة ، فكان عتابهم آية من آيات الود الصافى وحسن الاخاء »

الرافعى فى سنوات الحرب

كان الرافعى — رحمه الله — شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه ؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . ولقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المآسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل

ولقد وقعت الحرب واستعرت نارها فى الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمتربة أقلّ عديداً من ضحاياها هناك فى الميدان ... كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام ؟ رباه ! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى — وأنا غلام بعد — أستدعى النجار لعمل عندنا فوجدته جالساً فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق

أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية ... !

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء ، لأن أقوات الشعب قد حُملت إلى الميدان لتخزن في دار المؤن وقتاً ما ، لتقذفها من بعد قنابل المحاربين وتذروها رماداً فى الهواء ... !

ونظر الرافعى حواليه فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع ، فاحتبس الدم فى عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ، وتتشكل صوره ، وتحشد آثاره ؛ والرافعى دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل من هم الشعب في قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض ...

* * *

فى بعض اللحظات التى تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شيء له فى نظام الكون إرادة وتدبير ، وأن من حقه أن يقول المقدور : لماذا أنت فى طريقى ...؟ فتراه فى بعض نجواه يتساءل : ربِّ ، لِمَ كتبت عليَّ هذا .. ؟ لماذا حكمت بذلك ..؟ لماذا قدّرت وقضيت ..؟ ما حكمتك فيما كان ..؟ ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن .. ..؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفيء إلى الحق ، فيعود معتذراً يقول : رب ، لقد ظهر حكمك ، ودقت حكمتك فغفرة وعفواً ... !

وتظل حكمة الله مطوية فى ظلمات الغيب ، لا يتنورها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع فى قلبه نور الحكمة ، أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم أبداً فى حيرة وضلال

فى لحظة من تلك اللحظات أغمض الرافعى عينيه وراح يفكر ، وفى رأسه خواطر يموج بعضها فى بعض ؛ ثم فاءت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول : « ربِّ ، ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك..! » وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء ...

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويسرق بعضهم أقوات بعض ، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ولكنه كان يبتسم ، وعاد يقول : « حكيم أنت يا رب ! ليتهم وليتنى ...ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس ! ... كل شيء فى هذا الكون العظيم يجرى على قَدَرٍ منك وتدبير حكيم ! »

ثم شرع يؤلف كتابه المساكين

كتاب المساكين

أخرج الرافعى كتابه هذا فى سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف الرافعي فى المنثور ، وثانى ما ألف فى الأدب الإنشائى ، ويعرِّف به الرافعي فى الصفحة الأولى منه فيقول : هو كتاب « أردتُ به بيان شيء من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس »

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها :

« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مَرْقعةً جديدة ... فقد والله بليت أثواب هذا الفقر وإنها لتنسدل على أركانه مزقاً متهدلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلفقها بخيوط من الدمع ويمسكها برُقع من الأكباد ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل وأمل إلى خيبة وخيبة إلى هم ؛ وأقبحُ من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة تربط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الانسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال ، تلتقى عندها أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا صورة (الشيخ على) الرجل الذى يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش بنعمة الرضى ، وإلى جانبه قصة الغنى الشيخ الذى حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذه ، وهذه ... من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع

وأول أمر الرافعي فى تأليف كتاب المساكين أنه كان فى زيارة أصهاره فى (منية جناج) فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ

على هذا رجل يعيش وحده ليس له جيب يمسك درهماً ، ولا جسد يمسك ثوباً ، ولا دار تؤيه ، ولا حقل يغل عليه ؛ يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق ، رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس ، وآمال الحياة ، ولقيه الرافعي واستمع إلى خبره فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ على الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة

ويصف الرافعي الشيخ على فيقول :

« ... هو حليم لنفسه غضوب لنفسه ، وكذلك هو في الخفة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض ، وفي كل ضدين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يحيط بها إلا الماء فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هي فيه ؛ فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من يصيب بأذى ؛ ويتماشونه رأفة ورحمة ، ويتحاماهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه فيألم وكان ألمه مرض طبيعي ، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمض بطنه بالداء أو يمض ظهره بالعصا ... ! وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة غير أن أمرها مختلف جداً فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو لأنها لم تظفر به ...

« ... وهو رجل سدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء ، فكأنه في الأرض بطل خيالي بريء من نفسه إحدى خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم ، فهي تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة ؛ وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف ...

« ... فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا ... وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق ، وإن هولت عليه بألوان الخز والديباج حسبك مائقا لم تر قط نضارة البرسيم وألوان الربيع ... »

هذا هو الشيخ على الذي أوحى إلى الرافعي كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردّه إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الناضج

ولقد فرغ الرافعي من كتاب المساكين في سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ على من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل في نفس الرافعي وتملي عليه وتلهمه الرأي إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أن الرافعي كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضى فيما لا طاقة له به ، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله ، وإيمانه ذاك هو الذي كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى في أعصب أوقاته وأحرج ساعاته ، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام

* * *

كتاب المساكين الذي يقول عنه المرحوم أحمد زكي باشا :

« لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوته كما للألمان جوته »

هو كتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب التي حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ علي الجناجي « شبرا »

محمد سعيد العريان

الضبـــاب

سفر أدبي نفيس وضعه حديثاً الأديب

أمين يوسف غراب

وهو مرآة صافية لحياتنا المصرية ، وصورة صادقة لأخلاقنا وعاداتنا الريفية ؛ يعالج مواطن الضعف في هذه الأخلاق والعادات والتقاليد بأسلوب قصصي شائق

ويطلب من مكتبة صلاح الدين البنا بدمنهور

ثمنه ٥ قروش صاغ بما في ذلك أجرة البريد